مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٩) العدد (٩)
الإصدار التاسع والثلاثون
٢٠٢٦ (١٨-١)

علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه قراءة من منظور علم اللغة الاجتماعي

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

م . م صادق علي كاظم

مدرس اللغة العربية في إعدادية اليرموك للبنين، قسم تربية المدينة،

مديرية تربية البصرة، وزارة التربية

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ سبتمبر ٢٠٢٦م

المُلخَّص

إنَّ المتصفح لكتاب سيبويه يرى بوضوح اهتمامه وعنايته الكبيرة لمفهوم العلل النحوية التي يراد بها السبب أو التبرير أو المسوغ أو التعليل لما جاء مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً أو ايجازاً أو تخفيفاً، ومن بين تلك العلل التي اعتمدها سيبويه في الكتاب (علة كثرة الاستعمال) وهي المسوغ الذي يعلل به ما يطرأ على الألفاظ والسياقات التعبيرية من تخفيفٍ أو إيجازٍ أو حذفٍ عندما يكثر استعمالها ودورانها على ألسنة الناس، حيث يصيرون بها إلى الإيجاز، والبحث هذا ((علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه قراءة من منظور علم اللغة الاجتماعي)) يقوم على دراسة هذه العلة، غير أنَّه يحاول أن يقرأها بطريقة مغايرة، إذ يحاول أن يُشرك اللغة والنحو لإظهار أهم الصفات والتقاليد الاجتماعية والثقافية والنفسية التي يتسم بها العربي آنذاك، أي دراسة ما كثُرَ دورانه في ألسنة العربي لمعرفة صفاتهم الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: العلة النحوية، كثرة الاستعمال، الكتاب، سيبويه، علم اللغة الاجتماعي

Abstract

A reader of Sibawayh's book will clearly see his great interest in and attention to the concept of grammatical reasons, which are intended to explain, justify, or provide an explanation for what is used in the nominative, accusative, or genitive case, or for brevity or conciseness. Among the reasons that Sibawayh adopted in the book is the "reason of frequent usage," which is the justification he uses to explain the brevity, conciseness, or omission that occurs in words and expressive contexts when they are

frequently used and circulated among people, leading them to adopt a more concise style. This research, "The Reason of Frequent Usage in Sibawayh's Book: A Reading from the Perspective of Sociolinguistics," studies this reason, but it attempts to interpret it in a different way. It tries to combine language and grammar to reveal the most important social, cultural, and psychological characteristics and traditions that define it. It is the Arabic language at that time, that is, studying what was frequently used in the speech of the Arabs in order to understand their social characteristics.

*** التمهيد**

يعرّف علم اللغة الاجتماعي بأنَّه: ((دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع))[1]، ومن خلال هذا التعريف يتضح للباحث أنَّ هذا العلم يجمع بين كلٍّ من علم اللسانيات، وعلم الاجتماع، والجغرافية البشرية، وعلم اللهجات؛ أي إنَّه يدرس العلاقة القائمة بين اللغة والأفراد من جهة وبين المعطيات الاجتماعية من جهة أخرى[2]، ومَن يتصفح كتاب سيبويه يجد بوضوح كثرة استدلاله بالعلل النحوية، لتكون مسوغاً للظواهر النحوية واللغوية، وقد وقع اختيار الباحث في البحث هذا على (علة كثرة الاستعمال) بوصفها احدى العلل التي يستدل بها سيبويه – في الغالب – لبيان ما يطرأ في الكلام من حذف أو تخفيف، والبحث هنا ليس بصدد دراسة هذه العلة دراسة نحوية إنّما جُعلت نصوص سيبويه في هذه العلة النحوية قاعدة للانطلاق منها في تفسير الظواهر الاجتماعية التي يتصف بها العربي في تلك الفترة الزمنية.

وبعد الاحاطة الدقيقة بأهم الأبواب التي استدّل بها سيبويه بعلة كثرة الاستعمال اتضح للباحث أنَّه كثُر استدلاله بها في الأبواب التالية: ((النداء، والقسم، والتحذير والإغراء، والاختصاص، والدعاء، والنفي، والاستفهام، وأسلوب المدح الذم بـ(نعم وبئس)، والتعجب، وقطع النعت للمدح أو الذم أو الترحم، والمصادر المنصوبة، والحذف لعلم المخاطب، والفرار من توالي الأمثال، والهمز، والمثل وشبهه))، والملاحظ أنَّ هذه العلة التي استدّل بها سيبويه تقع – في الغالب – في الأساليب الإنشائية، ممّا يوحي للباحث بأنّ اللغة عند العربي آنذاك لا تقتصر على كونها وسيلة تواصلية فقط بل اتخذها وسيلة ينجز بها أفعالاً متعددة في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية، فهي وسيلة لإنجاز الكثير من الأفعال التي تتطلبها حياته، وهذا يلزم دراستها، لتحديد هوية المجتمع وسلوك الأفراد الاجتماعية والفكرية والثقافية.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هناك دراسات سبقت هذا البحث غير أنَّ هذا البحث يختلف في طريقة طرحه ودراسته، إذ لم يتناولها من وجهة نحوية وإنما جعل هذه العلة منطلقاً لبيان الظواهر الاجتماعية والفكرية والثقافية؛ أي دراستها من منظور

(1) علم اللغة الاجتماعي، هدسون، ترجمة محمد عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م: ١٢.

(2) ينظر: محاضرات في اللسانيات الاجتماعية، لطفي بوقرة، معهد الأدب واللغة ، جامعة بشار، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، د. ط، ٢٠٠٣م: ٣.

علم اللغة الاجتماعي [3]، وفيما يلي أهم الأبواب التي استدّل بها سيبويه بعلة كثرة الاستعمال: –

النداء: يعد باب النداء من أكثر الأبواب النحوية التي ذُكر فيها علة كثرة الاستعمال[4]؛ لأنَّ النداء مما يحتاج إليه الناس في مختلف تعاملاتهم اليومية، يقول سيبويه: ((وإنَّما فعلوا هذا بالنداء لكثرته في كلامهم، ولأنَّ أوّلَ الكلام أبداً النداء... فهو أوّلُ كلِّ كلام لك به تعطف المتكلّم عليك))[5] يؤكد سيبويه إنَّما كثر النداء عند العرب، لأنَّه مرتبط بطبيعة المجتمع العربي نفسه، إذ كان يعيش في مجتمع شفهي يعتمد التواصل المباشر أكثر من اعتماده على الكتابة، فهو الأوّل في كلِّ كلام تخاطب به الآخرين، ولهذا أصبح النداء جزءاً أساسياً من أسس تنظيم العلاقات الاجتماعية، ومن أهم الموارد التي ورد فيها كثرة الاستعمال: –

١– الجمع بين (أل التعريف) و(يا) النداء فقد منع النحاة الجمع بينهما إلَّا في لفظ الجلالة (الله)، وعلل سيبويه ذلك لكثرة استعماله، يقول: ((واعلم أنَّه لا يجوز لك أن تنادي اسماً فيه الألف واللام البتّة؛ إلَّا أنَّهم قد قالوا : يا أللهُ أغفر لنا، وذلك من قبل أنَّه اسم يَلزمه الألف واللام لا يفارقانه، وكثُرَ في كلامهم فصار كأنَّ الألف واللام فيه بمنزلة الألف واللام التي من نفس الحروف))[6]، وذكر ابن الوراق أربعة أوجه في منع حذف الألف واللام وجواز الجمع بينهما[7]، وأكّد ابن يعيش قائلاً: ((أنَّه إذا نزعت الألف واللام ... تنكّر، والتنكير في اسم (الله) تعالى محال))[8]، أي أنَّ لفظ الجلالة يحمل رمزية مقدسة في المجتمع العربي الاسلامي وحذف (أل التعريف) يؤدي إلى تنكيره فيؤدي إلى اللبس الدلالي ؛لأنَّ أصله الاشتقاقي (إلـه) وهو اسم جنس قد يطلق على غير الله تعالى[9]، ولذا انفرد لفظ الجلالة (الله) بهذه الخاصية، وهذا يؤكد بأنَّ العربي قد جعل هذه الظاهرة

([3]) ينظر: علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه دراسة لغوية – نحوية، شيماء عبد الزهرة نعمان ذرب المالكي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة بابل، ٢٠٠٨م، وينظر: علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه، د. رشيد العبيدي، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، جزء ١، مجلد٥٢، ٢٠٠٥م: ١١٣.

([4])ينظر: كتاب اللّامات، لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ت٣٣٧هـ، تح: مازن المبارك، دار الفكر- دمشق، ط٢، ١٩٨٥م: ١٠٩. ، وينظر: بحث: ظاهرة (بلى الألفاظ) بين أصولها التراثية والدرس اللغوي الحديث، د. أحمد إبراهيم هندي، جامعة عين شمس، دار غريب القاهرة، مجلة علوم اللغة (٢٩)، المجلد الثامن، العدد١، ٢٠٠٥م: ١٢٤.

([5]) الكتاب كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت١٨٠هـ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي –القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م: ٢٠٨/٢.

([6]) الكتاب: ١٩٥/٢.

([7]) ينظر: علل النحو ،لأبي الحسن محمد بن عبد الله الورّاق ت٣٢٥هـ، تح: د. محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشيد- الرياض، ط١، ١٩٩٩م: ٣٤٢.

([8]) شرح المفصّل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي ت٦٤٣هـ تح: أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠٠١م: ٣٤٤/١.

([9]) ينظر: المصدر نفسه: ٣٤٣/١، وينظر: علل النحو، ابن الوراق: ٣٤٢.

النحوية التواصلية للتعبير عمّا يحمله من رمزية دينية للفظ الجلالة.

٢– وممّا ذكره سيبويه من علة كثرة الاستعمال (حذف ياء المتكلّم من المنادى المضاف إليه)، ومثّل لذلك بقوله: ((يا قومِ لأبأسَ عليكم))[10]، فإنَّ اختيار سيبويه للفظة (قوم) بهذا النداء توحي بقرب المسافة بين المنادي والمنادى وهذا يدل على أن الفرد كان أكثر اندماجاً في مجتمعهِ كما تدل على الهوية المشتركة، كما أنَّ حذف ياء المتكلّم يحمل قيمة اجتماعية رمزية وهو الامتثال لأسلوب الجماعة أي الانتماء إلى نسق لغوي موحد، يضاف إلى ذلك ما ذكره النحاة من غاية الحذف هو التخفيف[11] والاختصار اللغوي يمنح النداء طابعاً عاطفياً أقوي.

وذكر أيضاً أنَّ (الياء) تحذف في نداء (يا ابن أمّ، و يا ابن عمّ)، يقول سيبويه: ((وقالوا يا ابن أُمِّ و يا ابن عمِّ، فجعلوا ذلك بمنزلة اسم واحد؛ لأنَّ هذا يكثر في كلامهم))[12] ويمكن أن يفسر نصّ سيبويه من خلال ما مثّل به بـ (يا ابن أمِّ، و يا ابن عمِّ) في حذف (الياء) بقوة الانتماء الأسري أو قوة التضامن في تلك المجتمعات إذ لاحظ د. هدسون تبادل العربي للفظة (يُمّه) في التخاطب فيما بين الأبناء والآباء وهذا مؤشر على قوة التضامن[13] ، وكأنَّ قوله (جعلوا ذلك بمنزلة اسم واحد) علامة تدلّ على قوة الانتماء، وممّا يؤكد هذا الرأي جعل سيبويه الغالب لهذا الحذف في نداء الأب والأم، يقول: ((وإنّما جازت هذه الأشياء في الأبّ والأمّ لكثرتهما في النداء))[14].

٣–كما أجاز سيبويه ((في المنادى المفرد العلم الموصوف بلفظة (ابن) مضافة إلى علم ولم يفصل بين المنادى وصفته المضافة بفاصل الاتباع بالبناء على الفتح))[15]، إذ يقول: ((ومثل ذلك قولك: يا زيدَ بنَ عمرو ... فتركوا التنوين ها هنا لأنَّهم جعلوه بمنزلة اسم واحد لما كثُرَ في كلامهم))[16]، فالعربي يعتزُّ بالنسب والانتماء إلى الآباء ولهذا كثُرَ ذكر الأنساب في كلامهم حتى جعل سيبويه المنادى الموصوف بـ (ابن) بمثابة الاسم الواحد أي، بمثابة المضاف والمضاف إليه فأجاز الاتباع بالبناء على الفتح في النداء.

٤– جواز (ترخيم) المنادى في الأسماء التي يجوز فيها الترخيم، ذكر النحاة أنَّ العلة الأساسية في الترخيم هو التخفيف[17]، وأكّد الدكتور إبراهيم حسن إبراهيم من المحدثين بأنَّ للترخيم أغراضاً تواصلية متعددة، إذ يقول: ((الغرض الأوّل .. هو

([10]) الكتاب: ٢٠٩/٢.
([11]) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
([12]) المصدر نفسه: ٢١٤/٢.
([13]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي، د. هدسون، ترجمة، د. محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م: ١٩٧- ١٩٨.
([14]) المصدر نفسه: ٢١٣/٢.
([15]) علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبوبه دراسة لغوية نحوية، شيماء عبد الزهرة نعمان، رسالة ماجستير، جامعة بابل- قسم اللغة العربية، ٢٠٠٨م: ٩٤.
([16]) الكتاب: ٢٠٣/٢ – ٢٠٤.
([17]) ينظر: الكتاب: ٢/ ٢٣٩، وينظر: أسرار العربية، الشيخ الإمام كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي ت٥٧٧هـ، تح: بركات يوسف هبود، شركة الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ١٧٨، وينظر: شرح المفصّل للزمخشري، ابن يعيش:٣٧٤/١.

التخفيف الذي تتطلبه كثرة الاستعمال... وقد يكون الغرض من الترخيم الرغبة في الإيجاز والاختصار، أو الميل إلى تنويع الكلام وتلوينه، أو تحليته وتحسينه، أو القصد إلى سرعة الفراغ من الكلمة للإفضاء إلى المقصود، فالمقصود في النداء هو المنادى له))[18]، فالترخيم من منظور علم اللغة الاجتماعي ليس ظاهرة نحوية فقط وإنَّما هو أداة يعبّر فيه المخاطِب عن مضامين اجتماعية والسياق –في الغالب– هو من يفسر ذلك، فقد يكون الاقتصاد في الجهد اللغوي، لذا عرفه سيبويه بقوله: ((الترخيم حذف أواخر الاسماء المفردة تخفيفاً))[19]، أو قد يكون ترخيم بعض الأسماء يفسر بالألفة والمحبة كقولهم في سلمة: يا سَلَم[20]، أو يفسر الترخيم بالخطاب غير الرسمي خصوصاً بين أفراد الأسرة الواحدة أو الأصدقاء كقولهم، يا صاحِ في يا صاحباً[21]، أو ((اظهار أنَّ المتكلّم عاجز عن اتمام بقية المنادى لضعفه عن ذلك لمرض ونحوه فيقول مثلاً (يا خال) منادياً خالداً))[22]، وهكذا تتعدد غاياته إلى غايات أُخر كالسخرية والتصغير وغير ذلك، إذاً لا تقتصر وظيفة الترخيم في ضوء علم اللغة الاجتماعي على الجانب النحوي فقط إنَّما يؤدي وظيفة في التفاعل الاجتماعي بين أبناء البيئة اللغوية فالشكل اللغوي قد يتغير بحسب العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياق والنبر هي الكفيلة بتفسيره.

القسم: يؤكد سيبويه بأنَّ (القسم) ممّا كثُر دورانه في ألسنة العرب ، ولهذا انتابه التخفيف، ومن ذلك: حذف فعل القسم، مثل: "بالله لأفعلَنَّ كذا" ويقّدر بـ"أحلف أو أقسم" بالله.. [23] ، ومن مواضع القسم التي انتابها التخفيف لكثرة الاستعمال، حذف المقسم به مع أداة القسم، يقول سيبويه: ((وسألته عن قوله (لَتَفعلنَّ)... فقال: إنَّما جاءت على نية اليمين وإن لم يتكلم بالمحلوف به))[24]، ومن ذلك أيضاً حذف حرف القسم مع بقاء عمله، فذكر سيبويه هذا قائلاً: ((واللهِ لأفعلنَّ، وذلك أنه أراد حرف الجر، وإيّاه نوى، فجاز حيث كثُر في كلامهم، وحذفوه تخفيفاً وهم ينوونه))[25]، وكذلك حذف نون (أيمن) ووصل همزتها، فقد ذكر سيبويه بأنَّ: ((قولك: ... وأيمُ اللهِ لأفعلنَّ. وبعض العرب يقول، أيمُنُ الكعبةِ لأفعلنَّ... إلَّا أنَّ ذا أكثر في كلامهم، فحذفوه كما حذفوا غيره. وهو أكثر ممّا أصفه لك))[26].

وقد تنبّه النحاة بأنَّ الغرض من القسم هو التوكيد، يقول سيبويه: ((المحلوف به مؤكد به الحديث))[27]، وذكر ابن يعيش بأنَّ: ((الغرض من القسم توكيد ما يقسم عليه من نفي

([18]) الترخيم في العربية معناه. أغراضه. أنواعه، د. إبراهيم حسن إبراهيم، مطبعة حسان – القاهرة، د.ط، ١٩٨٤م: ٨.
([19]) الكتاب: ٢/ ٢٣٩.
([20]) ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٢٤١.
([21]) ينظر: شرح المفصّل للزمخشري، ابن يعيش: ١/ ٣٧٧.
([22]) معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر- عمان، ط١، ٢٠٠٠م: ٤/ ٣٣٤.
([23]) ينظر: الكتاب:٤٩٧/٣، وينظر: الايضاح في شرح المفصّل، للشيخ أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب النحوي ت٦٤٦هـ، تح، د. موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، د. ط، ١٩٨٢م: ٣٢٣/٢.
([24]) ينظر: الكتاب: ١٠٦/٣ .
([25]) الكتاب: ٣ /٤٩٨.
([26]) الكتاب: ٣ /٥٠٢ -٥٠٣.
([27]) الكتاب: ٣ /٤٩٧.

أو اثبات))[28]، ولكنَّهم لم يولوا هذا الموضوع عناية كبيرة، إذ لم يدرسوا المعنى الأساسي له بوصفه معنى من المعاني اللغوية الدالة على التوكيد، مع ذلك فإنَّ من النحاة من درس بنية القسم وتقصى آثاره كالرضي وأبي حيان الأندلسي[29]، فقسموه على قسمين: –

الأوّل: ما يتضمن معنى الطلب (السؤال) وهو ما كان جوابه متضمن معنى الطلب كالأمر والنهي والاستفهام وغرضه هو الإلحاح في الطلب، مثل: باللهِ لتفعلنَّ كذا.

والثاني: ما يتضمن معنى الإخبار، والغرض منه تأكيد الاخبار، مثل: والله أنِّي لصادق[30].

وأكّد د. مهدي المخزومي بأنَّ للتوكيد صور أخرى أوسع من اعادة اللفظ بتكراره ومنها التوكيد بالقسم، ولكنَّ النحاة لم يولوا هذا الموضوع عناية أكثر[31]، ويرى د. فاضل السامرائي بأنَّ ((الحلف فيه معنى التقوية...وذلك القسم فمن اشتقاقه يعطي معنى التقوية))[32]، وعلى هذا ذهب بعض الدارسين بأنَّ القسم يندرج ضمن (التأكيد) بمعايير سيرل، وهذا موافق لما ذهب إليه النحاة القدامى، فجُعِلَ درجة من درجات التأكيد؛ لأنه لا يراد منه القسم لذاته، وإنَّما يراد منه غرض تواصلي وهو دفع المخاطب إلى الوثوق بكلامه، فالتأكيد ينقسم على قسمين صريح وغير صريح ويندرج (القسم) في بنية (الفعل الكلامي التأكيدي)[33]، وبما أنَّ القسم يندرج في بنية الفعل الكلامي التأكيدي الذي يراد به تقوية المعنى وتثبيته فقد كثر استعماله في كلام العرب بوصفه وسيلة من وسائل تأكيد المصداقية وحماية الكلام من الشك، وبالخصوص في مجتمع يقوم على الإقناع والمواجهة المباشرة وهو المجتمع العربي القديم الذي يقوم على المشافهة، فالخطيب والشاعر وكذلك المتحدث في المجلس كلهم يحتاجون إلى هذه الوسيلة لإقناع السامعين، كما أنَّ المتكلّم يريد أن يحافظ على وجهه الاجتماعي ليظهر بمظهر الصادق أمام الجماعة، يضاف إلى ذلك أثر البيئة الثقافية عند المسلمين إذ يستهل به في شهادة الشاهد في التقاضي، أو يكون وسيلة لفض المنازعات[34]، فالوظيفة الاجتماعية التي يتضمنها القسم وهي التأكيد جعلته من الأساليب التي يكثر استعماله في العربية.

*** التحذير والإغراء**

عرف التحذير بأنَّه: ((تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليتجنبه))[35]، ويقوم معناه على التنبيه والزام المخاطب على أمر

(28) شرح المفصّل للزمخشري، ابن يعيش: ٢٤٤/٥.
(29) ينظر: شرح الرضي على الكافية، تصحيح: يوسف حسن عمر: ٣٠٨/٤، وينظر: التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسي ت٧٤٥هـ، تح، حسن هنداوي، دار كنوز اشبيليا- الرياض، ط١، ٢٠١٣م: ١١/ ٣٢٩.
(30) ينظر: المصدر السابق: الموضع نفسه.
(31) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي –بيروت، ط٢، ١٩٨٦م: ٢٣٤.
(32) معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي: ١٥٩/٤.
(33) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة- بيروت، ط١، ٢٠٠٥م: ٢١٠.
(34) ينظر: اللغة والمجتمع رأي ومنهج، د. محمود السعران، مطبعة الاسكندرية، ط٢، ١٩٦٣م: ١٢٦.
(35)شرح التصريح على التوضيح، للشيخ خالد بن عبد الله الأزهري ت٩٠٥هـ، تح، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م: ٢/ ٢٧٣.

يجب الاحتراز منه[36]، فأساس هذا الفعل يقوم على التنبيه والأمر بالاجتناب[37]، وهذا ما نصّ عليه سيبويه بأنَّه يجري على (الأمر والتحذير)[38]، وجعله النحاة من قبيل الإنشاء الطلبي[39]، وعلّل سيبويه في مواضع مختلفة سبب حذف الفعل في هذا الأسلوب بكثرة الاستعمال، إذ يقول: ((ومن ذلك قولك: إيّاك والأسدَ، وإيّايّ والشرَّ ... وحذفوا الفعلَ من إيّاك لكثرة استعمالهم إياه في الكلام))[40]، وقال في موضع آخر: ((ومن ذلك قولهم: "مازِ رأسَكَ والسيفَ" ... وإنَّما حذفوا الفعلَ في هذه الأشياء حين ثنّوا لكثرتها في كلامهم واستغناءً بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر))[41]، وذكر آخرون أنَّ الداعي من الحذف هو ضيق الوقت؛ الغالب من حالات التحذير يتطلب الاسراع ليغنيه المخاطب قبل فوات الأمر[42].

ويبدو من خلال النصوص أعلاه أنَّ السبب في كثرة التحذير في كلام العرب يعود إلى أسباب ترتبط بطبيعة حياتهم الاجتماعية والبيئية، ومنها طبيعة البيئة التي يعيش فيها العربي القديم فهي بيئة مملوءة بالمخاطر فهناك الغارات المفاجئة، والصحراء القاسية الواسعة، والتنقل الدائم، وعلى هذا أصبح التحذير أداة لحماية الجماعة وليس مجرد وسيلة للخطِاب، ومن جهةٍ أخرى يدل التحذير على التضامن بين أبناء البيئة الواحدة.

كما يمكن عدّه من منظور علم اللغة الاجتماعي وسيلة لنقل الخبرة المتوارثة؛ فالكبير في السن والفارس المجرّب يُنظر إليه مصدر معرفة بالحياة، فيقوم بنقل تلك التجارب بالنصح والتنبيه والتحذير ممّا جعله وسيلة من وسائل نقل الخبرات، ومن هنا كثُرَ التحذير في كلام العرب.

أمّا الإغراء فيعرف: ((تنبيه المخاطب على أمر محمودٍ ليلزمه))[43]، إذ يقوم على تنبيه المخاطب ودعوته إلى الفعل على سبيل الترغيب والتشويق والإغراء[44]وقد ذكر سيبويه الإغراء قائلاً: ((ومن ذلك قول الشاعر وهو المسكين: أخاكَ أخاكَ إنَّ مَن لا أخا له كساعٍ إلى الهيجا بغيرِ سلاح كأنَّه يريد: ألزم أخاك))[45]، ويؤكد سيبويه بأنَّ علة حذف الفعل في أسلوب الإغراء هي نفسها التي في التحذير أي كثرة الاستعمال[46]، وهذا ما أكّده الرضي عندما وضح سبب

(36) ينظر: بحث: من تراكيب التحذير الدالة على المنع في تعبير نهج البلاغة، د. فاخر هاشم الياسري وتيسير قاسم عطية، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الانسانية، عدد٤، مجلد٤٣، ٢٠١٨م: ٣٦٥.
(37) ينظر: التداولية عند العلماء العر ب،
(38) ينظر: الكتاب: ١/ ٢٧٤.
(39) ينظر: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، د. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٥، ٢٠٠١م: ١٥٣.
(40) الكتاب: ١/ ٢٧٤.
(41) الكتاب: ١/ ٢٧٥.

(42) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٤٨٢/١، وينظر: النحو الوافي، عباس حسن، انتشارات ناصر خسرو- قم، ط٧، ١٤٢٥هـ ١٢٤/٤، وينظر: معاني النحو:١١٠/٢.
(43) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، للإمام جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف المعروف بابن هشام النحوي ت٧٦١هـ، تح: محمد أبو فضل عاشور، دار احياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م: ١٢٠.
(44) ينظر: جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، دار الكوخ- بيروت، ط١، ٢٠٠٤م: ٤١٩/٣.
(45) الكتاب: ١/ ٢٥٦.
(46) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٤/١- ٢٧٥.

حذف الفعل في الإغراء، يقول: ((علة وجوب حذفه: ما تقدم في التحذير))[47]، أي: حكم الاسم المنصوب في الإغراء هو حكمه في التحذير[48]، فالإغراء كذلك يُعدّ وسيلة لغوية لتوجيه السلوك الاجتماعي كما هو الحال في التحذير، فكثر أسلوب الإغراء يكشف لنا أنَّ الخطاب العربي القديم كان أسلوباً تعبوياً في الكثير من الأحيان وهذا ما يحتاجه المحارب ليثير حماسته، كما يمكن تفسير كثرة الإغراء بوصفه أسلوباً يدفع المخَاطب إلى التمسك بصفة ما يراها المجتمع محمودة، فعندما يقول العربي (أخاكَ أخاكَ، أو الصبرَ الصبرَ) فهو لا يقدّم نصيحة فحسب بل يعيد انتاج القيم؛ فكأنَّ اللغة هنا تعمل كوسيلة لضبط القيم والسلوك المجتمعية والمحافظة عليها، فهو يقوم بنقل هذه القيم بالكلام المباشر والمشافهة والمواقف الخطابية وليس بالنصوص المكتوبة؛ ولذلك كثُرَ أسلوب الإغراء في كلام العرب، واصبح يؤدي دوراً في التربية والتحفيز والمحافظة على القيم العربية الأصيلة.

ويصنف التحذير والإغراء في الدراسات اللسانية الحديثة ضمن " الأفعال الكلامية" باعتبارهما يهدفان إلى التأثير في المخاطب وحمله على اداء فعلٍ ما، غير أنّ الفرق بينهما أنَّ الإغراء دعوة إلى الفعل أمّا التحذير دعوة إلى الترك أي يشتركان بأنَّ في كلٍّ منهما دعوة[49].

الاختصاص: نصّ سيبويه بأنَّ الاختصاص يجري على ما جرى عليه النداء، إذ يقول : ((وذاك قولكَ: إنَّا مَعْشَرَ العرب نفعل كذا وكذا، وكأنَّه قال، أعني ولكنَّه فِعْلٌ لا يظهر ولا يستعمل كما لم يكن ذلك في النداء))[50]، وقال: ((وقال: نحنُ العُربَ أقرى الناس لضيفٍ، فإنما أدخلت الألف واللام لأنَّك اجريت الكلام على ما النداء عليه))[51]، واستدل على حمله على النداء بدخول (أي) في القول: (أيتها العصابة، لأنَّ فيه: يا)[52]وقد ذكر في مواضع عديد بأنّ الفعل حذف في النداء لكثرة الاستعمال[53]، ويرى سيبويه أنّ المعنى أو الفائدة المرجوة من الاختصاص هي الافتخار، إذ يقول: –

((وأمّا قول لبيد: نحنُ بنو أم البنينَ الأربعة ونحنُ خيرُ عامر بن صَعْصَعَهْ

فلا ينشدونه إلّا رفعاً، لأنّه لم يُرِدْ أن يجعلهم إذا افتخروا أن يعرفوا بأنَّ عدّتهم أربعة، ولكنَّه جَعل الأربعة وصفاً))[54]، وقال: ((إذا صغّرت الأمرَ فهو بمنزلة تعظيم الأمر في هذا الباب، وذلك قولك: إنّا معشرَ الصعاليك لا قوّة بنا على المرُوّة))[55]، ويرى سيبويه بأنَّ ((أكثر الأسماء دخولاً في هذا الباب بنو فلان، ومعشر مضافةً، وأهلُ البيت، وآل فُلان))[56]، وتوصّل عالم اللغة الاجتماعي د. هدسون – بعد دراسة – بأنَّ استعمال المتكلم لبعض الضمائر أو اختياره للألفاظ الدالة على الخصائص الاجتماعية المشتركة مثل الديانة والجنس ومسقط الرأس والعِرق

([47]) شرح الرضي على الكافية: ٤٨٥/١.
([48]) ينظر: معاني النحو: ٣/ ١١٥.
([49]) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٢١٣.
([50]) الكتاب: ٢٣٣/٢.
([51]) الكتاب: ٢/ ٢٣٤.
([52]) ينظر: الكتاب: ٢/ ٢٣٦.
([53]) ينظر: الكتاب: ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١.
([54]) المصدر نفسه: ٢/ ٢٣٥.
([55]) الكتاب: ٢/ ٢٣٥.
([56]) الكتاب: ٢/ ٢٣٦.

وغيرها تعبّر عن درجة كبيرة من التضامن والقوة من جانب المتحدث[57]، كما ويرجح د. كامل مصطفى الشبيبي بأنَّ الحذف في بعض الصيغ النحوية في العربية تظهر صفة من صفات العنصر العربي، وذلك أنَّه لا يحترم إلَّا القوي[58]، وعلى هذا فالمرجح بكثرة دوران اسلوب الاختصاص في اللسان العربي للتعبير عن قوة التضامن فيما بينهم وكذلك لإظهار التماسك والقوى لديهم.

فاستعمال العربي للأسماء نحو (نحن بنو فلان، إنا معشر، وآل فلان) يمثل انعكاساً لطبيعة المجتمع الذي كان شديد الاهتمام بالهوية والانتماء القبلي والمكانة داخل مجتمعه، فهو لا يكتفي بإيصال الفكرة فحسب بل يعرّف نفسه اجتماعياً اثناء الكلام، ويرسم الحدود التي تتميز بها كلّ جماعة عن غيرها، وعلى هذا فإنَّ هذا الأسلوب اللغوي يحمل الوعي الاجتماعي، ولما كانت الثقافة العربية القديمة شفوية تعتمد الخطاب المباشر في الكلام كثُرَ استعمال اسلوب الاختصاص في اللغة العربية ليؤدي وظيفة تفسيرية واجتماعية في وقتٍ واحدٍ.

الدعاء: أهم ما يفهم من كلام النحاة أنَّ الدعاء ممّا يكثر فيه الحذف لكثرته في الاستعمال[59]، وقد أفرد سيبويه باباً للمصادر المنصوبة بالفعل المحذوف للدلالة على الدعاء، ومن جملة ما ذكره (سَقْياً ورَعْياً وتُعساً وتبّاً وجُوعاً) وتقدر بـ (سَقاك الله سَقياً، ورعاكَ الله رَعياً ...)[60]، وممّا دلَّ من الصفات أيضاً على الدعاء "هنيئاً ومريئاً": فكأنَّك قلتَ: ((ثَبتَ لك هنيئاً مريئاً؛ لأنَّه صار بدلاً من اللفظ بقولكَ هَناكَ))[61]، وقال المبرّد : ((فأمّا قولك: غَفرَ الله لزيد، ورحم الله زيداً ونحوه ذلك — فإنَّ لفظه لفظ الخبر ومعناه الطلب؛ وإنَّما كان كذلك لِعلم السامع أنَّك لا تُخبر عن الله —عزّ وجلّ– وإنَّما تسألهُ))[62]، وأكّد سيبويه بأنّ الحذف في هذا الأبواب لكثرة الاستعمال كما هو الحال في أبواب حذف المصادر[63]، وقد مرَّ الباحث بذكرها.

والملاحظ لدى سيبويه في تقديره للفعل المحذوف إنَّه يعبّر عنه بصيغة الماضي كقوله (سقاك ورعاك وثَبتَ وغيرها)، وفسّر بعض الباحثين هذه الظاهرة اجتماعياً بـ(إيمان العرب بالقدر) فهو حين يدعو للإنسان يأمل أن تكون الأقدار قد كُتبت له بالنجاة منها، فهو يعتقد اعتقاداً راسخاً لا يد له بهذه الاقدار، ولعلّ هذا الأسلوب فريد من بين اللغات الأخرى التي يكون فيها الدعاء مصبوباً بصيغة الأمر، إذ يقولون ما ترجمته (ليحفظك الله) على عكس الأسلوب العربي[64]. كما يمكن تفسير كثرة الدعاء للتعبير عن التضامن؛ لأنَّ العلاقات الاجتماعية آنذاك قائمة على التقارب المباشر، أو ربما تفسر للتعبير عن الخوف فالأسفار الطويلة والمرض والجفاف عوامل جعلت العربي يشعر بأنَّ حياته معلقة بقوة أكبر منه، ناهيك

([57]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي، د. هدسون، ترجمة محمود عياد، عالم الكتب- القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م: ١٩٢ – ١٩٦.

([58]) ينظر: بحث: أصول نفسية واجتماعية في اللغة والنحو، د. كامل مصطفى الشبيبي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، المجلد التاسع، ١٩٦١م: ٣٠٥.

([59]) ينظر: ظاهرة بلى الألفاظ بين أصولها التراثية والدرس اللغوي الحديث: ١٣٩.

([60]) الكتاب: ١/ ٣١١.

([61]) الكتاب: ١/ ٣١٢.

([62]) المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ت٢٨٥هـ، تح، محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، د.ط، ١٩٩٤م:١٣٠/٢.

([63]) الكتاب: ١/ ٢٩٠، ٣١٢.

([64]) ينظر: بحث: أصول نفسية واجتماعية في اللغة والنحو: ٣٠٧.

عن استعماله الانفعالي لا بوصفه التعبدي بل بوصفه وسيلة للتعبير عن المحبة أو الاعجاب أو الغضب ونحو ذلك.

النفي: ذكر سيبويه مواضع عديدة للنفي منها: –

١– حذف اسم (لا) النافية للجنس، يقول سيبويه: ((قولهم: لا عليكَ، وإنّما يُريد: لا بأسَ عليك ... ولكنَّهُ حذف لكثرة استعمالهم إيّاه))[65]، وذكر المبرّد: (لا عليك؛ أي: لا بأسّ عليك) وحذف اسم (لا) لكثرة الاستعمال[66].

٢– حذف المستثنى بـ (ليس) و (لا يكون)، يقول سيبويه: ((ما أتاني القوم ليس زيداً، وأتوني لا يكون زيداً ... فكأنَّه قال: ليس بعضهم زيداً وترك إظهار بعضٍ استغناءً))[67].

٣– عند الدعاء على المدعو عليه بالسلب والنفي، ومثّل له سيبويه بـ (لا مرحباً، ولا أهلاً، ولا كرامةً، ولا سقياً، ولا رعياً، ولا هنيئاً، ولا مريئاً وغيره)[68].

٤– تغيير حركة (لَيسَ)، فالأصل فيها (لَيِسَ) – بكسر الياء– ثم خففت بتسكين وسطها للتخفيف؛ لأنَّها كَثُرت في كلامهم، يقول سيبويه: ((وأمّا لَيْسَ فإنَّها مُسْكنة ... كما قالوا: عَلْمَ ذاك في عَلِمَ ذاك، فلم يجعلوا اعتلالها إلَّا لزومَ الاسكان، إذ كثُرت في كلامهم))[69].

٥– الحذف في بعض الأفعال، ومن الأفعال التي ذكرها سيبويه(لا أدْر، لم أُبَل، ما أدرِ)، يقول: ((قالوا: لا أدْرْ، في الوقف، لأنَّه كَثُرَ في كلامهم ... فلا تحذف الياء إلَّا في: لا أدْرْ، وما أدْرْ))[70]، وقال: ((تقول: لم أُبَلْ ولا تقول: لم أُرمْ تُريد لم أرام: فالعرب ممّا يغيرون الأكثر في كلامهم عن حال نظائره))[71].

وعلّل الزجاجي جواز دخول اللام في النفي بين المضاف والمضاف إليه بكثرة استعمالهم للنفي كما هو الحال في النداء، إذ قال: ((إنَّما جاز ذلك في النفي لكثرته في الكلام وهم ممّا يغيرون الشيء من حال نظائره إذا كَثُرَ في الكلام))[72].

والراجح في تفسير كثرة استعمال النفي في كلام العرب لارتباطه بطبيعة العلاقات القبلية القائمة على الجدل والمفاخرة والردود المتبادلة، فكلامهم لم يكن أحادي الاتجاه بل كثيراً ما يقوم على الجدل والحوار إذ يسعى كلّ طرفٍ إلى نفي ما يقوله الطرف الآخر وتقويضه؛ وعلى هذا أصبح النفي جزءاً من بينة الحوار الاجتماعي.

الاستفهام: والاستفهام كالنفي يكثر تردده على ألسنة الناس ولهذا كثُر فيه الحذف لكثرة استعماله، ومن المواضع التي ذكرها سيبويه: –

١– حذف الخبر في الاستفهام إذا دخل على المبتدأ حرف الجر، مثل ((هل من طعامٍ؟ أي هل من طعامٍ في زمانٍ أو مكانٍ، وجوابه: ما من طعامٍ))[73].

([65]) الكتاب: ٢ / ٢٩٥، ١/ ٢٢٤، ٣/ ٢٨٩.
([66]) ينظر: المقتضب: ١٤٩/٢.
([67]) الكتاب: ٢/ ٣٤٧.
([68]) ينظر: الكتاب: ٢/ ٣٠١.
([69]) الكتاب: ٤/ ٣٤٣- ٣٤٤.
([70]) الكتاب: ٤ /١٨٤.
([71]) الكتاب: ٢/ ١٩٦.
([72]) كتاب اللّامات، لأبي القاسم عبد الحمن بن اسحاق الزجاجي ت٣٣٧هـ، تح، مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م: ١٠١.
([73]) ينظر: الكتاب: ٢/ ١٣٠.

٢– حذف المبتدأ في مثل (هل لك في ذلك؟ ومَن له في ذلك؟) حيث يحذف المبتدأ لكثرة الاستعمال كما هو الحال في حذف اسم (لا) النافية للجنس[74].

٣– حذف (كان) لكثرة استعمالها في مثل ((ما أنتَ وزيداً، أي: ماكنتَ وزيداً))[75].

٤– حذف ألف ما الاستفهامية إذا دخل عليها أحد حروف الجر، مثل ((فِيمْ، وعَلامْ، ومِمْ، ولِمْ))[76].

٥– وقد يحذف حرف الاستفهام لظهور معناه، نحو: –

((ثمَّ قالوا: تُحبُّها قلتُ: بَهراً عدد النجم والحصى والترابِ))[77]. والمرجح في كثرة استعمال أسلوب الاستفهام يعود لطبيعة المجتمع الذي يعتمد الحوار التفاعلي المباشر في بناء المعرفة، فالاستفهام لا يستعمل لطلب الجواب فقط بل لإثارة الانتباه أو للتعجب ويستعمل أحياناً للتوبيخ أو التشويق ومن هنا كثُرَ في كلام العرب.

أسلوب المدح والذم بـ (نعم وبئس): يبين سيبويه ما أصاب فعلي المدح والذم من آثارٍ وذلك لكثرة استعمالهما، ومن ذلك:–

١– حذف تاء التأنيث فيجوز أن يقال: نعمت المرأة فاطمة، ونعم المرأة فاطمة، يقول سيبويه: ((ومن قال نِعْمَ المرأة قال نِعْمَ البلدُ، وكذلك هذا البلدُ نِعْمَ الدارُ، لما كانت البَلد ذكرّت فيلزم هذا في كلامهم لكثرته، ولأنَّه صار كالمثل))[78].

٢– اضمار فاعلهما بشرط تفسيره، يقول: ((واعلم أنَّك لا تظهر علامة المضمرين في نِعْمَ، لا تقول: نِعْمُوا رجالاً، يكتفون بالذي يفسِّره ... ففعلوا هذا بهذه الأشياء لكثرته استعمالهم هذا في كلامهم))[79].

٣– تسكين وسطهما والزامهما ذلك، لأنَّ أصلهما (نَعِمَ وبَئِسَ)، يقول: ((كما ألزموا نِعْمَ وبِئْسَ الإسكان ... لكثرته استعمالهم هذا في كلامهم))[80].

والراجح عند د. كامل مصطفى الشبيبي أنَّ السبب في كثرة المدح والذم في العربية يرجع إلى: ((الطبيعة النقاد الراسخة ولعلَّ السبب في ذلك يعود للنظام القبلي والعزلة التي تقتضيها البيئة))[81].

التعجب: ذكر سيبويه أسلوب التعجب من جملة ما يظهر فيه أثر كثرة الاستعمال، ومن ذلك: –

١– حذف لام الجر ولام لفظ الجلالة في (لله أبوك) ، يقول: ((أنَّ قولهم: لاهِ أبوك ولقيته بالأمس، إنَّما هي على: لله أبوك، ولكنَّهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفاً على اللسان .. ولكنَّهم قد يُضمرونه ويحذفونه فيما كَثُرَ من كلامهم، لأنَّهم إلى التخفيف ما أكثروا استعماله أحوج))[82].

٢– حذف الفعل من الكلام وفيه معنى التعجب، كما في قول جرير: –

((يا صاحبيّ دَنا الرَّواحُ فسيرا لا كالعشية زائراً ومزورا

([74]) ينظر: ٣/ ٢٨٩.
([75]) ينظر: الكتاب: ١/ ٣٠٣.
([76]) ينظر: الكتاب: ٤/ ١٦٤.
([77]) الكتاب: ١/ ٣١١.
([78]) الكتاب: ٢/ ١٧٩.
([79]) الكتاب: ١٧٩/٢.
([80]) الكتاب: ٢/ ١٧٩.
([81]) بحث: أصول نفسية واجتماعية في اللغة والنحو.٣٠٥ -٣٠٦ بتصرف.
([82]) الكتاب: ٢/ ١٦٢- ١٦٣.

إنَّما أراد: لا أرى كالعشية زائراً .. وفيه معنى التعجب، كما قال: تالله رجلاً، وسبحان الله رجلاً، إنَّما أراد: تالله ما رأيت رجلاً ... لأنَّ المخاطب يعلم أنّ هذا الموضع إنَّما يضمرُ فيه هذا الفعل، لكثرة استعمالهم إيّاه))[83].

ورجّح بعض الدارسين كثرة استعمال العرب واسرافهم في التعجب بأنَّه: ((يدل على طيبة هذا الجنس وبساطته وسرعة استغرابه وقلة محصوله وفقر بيئته، وتلك أمور نابعة من البيئية التي تحيط به))[84].

*** قطع النعت للمدح أو الذم أو الترحم**

ومثّل للمدح بـ((الحمدُ للهِ الحميدَ هو))[85]، وللذم بـ((أتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيثَ))[86]، وللترحم بـ((مررتُ به المسكينَ))[87]، يقول سيبويه: ((وزعم الخليل أنّ نصب هذا على أنَّك لم ترد أن تحدِّث الناسَ ولا مَن تُخاطبُ بأمرٍ جهلوه، ولكنَّهم قد علموا مِن ذلك ما قد علمت، فجعلته ثناء وتعظيماً ونصبه على الفعل))[88]، ويرى سيبويه أن الباب النحوي يجري على ما يجري عليه النداء، إذ يقول: ((وهذا شبيهٌ بقولهِ: إنّا بني فلان نفعل كذا... لأنَّ إنا بني فلان ونحوه بمنزلة النداء وقد ضارعه هذا الباب))[89]، أي الاختصاص وقطع النعت كلاهما يشبه النداء في النصب بالفعل المحذوف.

*** المصادر التي تكون بدلاً من اللفظ بالفعل**

١– مثّل للمصدر النائب عن الفعل في الأمر والنهي بـ (حمداً وشكراً لا كفراً، وعَجَباً) وقال: ((وإنَّما اختزل الفعلُ ههنا لأنَّهم جعلوا بدلاً من اللفظ بالفعل، كما فعلوا ذلك في باب الدعاء))[90].

٢– ومثّل للاستفهام التوبيخي: ((أقياماً يا فلان والناسُ قعودٌ و"أطرباً وأنتَ قنّسرى"))[91].

٣– ومثّل للمفعول المطلق إذا وقع عامل المصدر فيه خبراً ((ما أنتَ إلَّا سيراً، وإلَّا سيراً سيراً، وما أنتَ إلَّا الضربَ الضربَ))[92].

٤– ومما جاء فيه المصدر منصوباً قولهم (سمعاً وطاعةً وحمداً لله) وكذلك المصدر إذا ثنى مثل ((حنانيك ولبيك وسعديك))[93].

٥– ومنه المصدر المنصوب على التشبيه، ومثّل لذلك بـ(له صوتٌ صوتَ حِمار، و له صُراخٌ صُراخَ الثُكلى)، وأكّد سيبويه بأنّ الحذف في هذه الأبواب لكثرة الاستعمال[94].

*** الحذف لعلم المخاطب أو لدلالة الحال أو المقال**

وهو باب واسع لا يُكاد يُحصر؛ لأنَّه ممّا يتكرر في حياة الناس كثيراً، وقد ذكره سيبويه في مواضع مختلفة منها، حذف خبر (لولا) وجوباً لكثرة الاستعمال، ومثاله ((لولا عبدُالله

([83]) الكتاب: ٢/ ٢٩٣.
([84]) بحث: أصول نفسية واجتماعية في اللغو النحو: ٣٠٧.
([85]) الكتاب: ٦٦/٢.
([86]) الكتاب: ٢ / ٧٠.
([87]) الكتاب: ٢ / ٧٥.
([88]) الكتاب: ٢ /٦٥ – ٦٦.
([89]) الكتاب: ٢/ ٦٦.
([90]) الكتاب: ١ / ٣١٨- ٣١٩.
([91]) الكتاب: ٣٣٨/١.
([92]) الكتاب: ١ /٣٣٥.
([93]) ينظر: الكتاب: ١ / ٣٣٨ – ٣٣٩.
([94]) ينظر: الكتاب: ١ / ٢٩٠.

لكان كذا وكذا، كأنّك قلت: لولا عبدُالله كان في ذلك المكان))[95]، ومنه ((حينئذٍ الآن، أي: واسمع الآن))[96]، ومنه ((وما أغفله عنك، شيئاً، أي: دع الشكَّ عنك))[97].

ومن مواضعه أنَّك إذا رأيتَ رجلاً في هيئة الحاجّ تقول: (مَكَّةَ ورَبِّ الكعبة، أي: يُريد مكةَ والله)، ومنه إذا رأيتَ شخصاً يُسدد سهماً تقول: ((القرطاسَ، أي: يُصيب القرطاسَ))[98]، ولكون الحذف لعلم المخاطب أو لدلالة الحال أو المقال كثيراً ويُكاد لا يُحصر، قال سيبويه بعد ذكره الأمثلة: ((وما يُحذف في الكلام لكثرة استعمالهم كثيرٌ))[99].

ويمثّل علم السامع في هذه المظاهر النحوية وهي: (النعت المقطوع، والمصادر المنصوبة التي تكون بدلاً من اللفظ بالفعل، والحذف لعلم المخَاطب) مسوغاً للحذف وخروج العبارة من مدلولها النحوي الظاهر إلى معنى آخر مختلف[100]، ولذلك أكّد سيبويه في أكثر من مناسبة هذا الأمر، ومن ذلك قوله: ((إنَّ نصب هذا على أنَّك لم ترد أن تُحدِّث الناسَ، ولا مَن تُخاطب بأمرٍ جهلوه، ولكنَّهم قد علموا مِن ذلك ما قد علمتَ))[101]، ومن خلال هذه الظواهر يبدو أثر المجالس واضحاً في النحو العربي بما تحتويه من الفخر والجدال وكثرة المقاطعة، ولهذا احتاط العربي لمثل هذه المقاطعات فجعل لها هذه القواعد النحوية القائمة برأسها، وهذه المظاهر النحوية ((تضيء لنا حقيقة هي تمكن الناحية الخطابية، أو الفصاحة عموماً، من اللغة العربية وإذا اضيف الإيجاز إلى هذه الأمور فلا يسعنا إلَّا أن نقرر أن الاستعداد الخطابي أصيل في اللغة العربية وأنَّ الأسواق كانت حقيقة واقعة))[102]، حيث تظهر لنا هذه القواعد النحوية درجة عالية من التشارك الثقافي داخل الجماعة اللغوية، فيعتمد المخَاطب السياق الحيّ في فهم المعنى دون تصريح ولهذا يعد الحذف في هذه الأبواب النحوية جزءاً طبيعياً من الاقتصاد اللغوي في التواصل اللغوي.

*** الفرار من توالي الأمثال**

من المواضع التي نبّه عليها النحاة ظاهرة الفرار من توالي الأمثال، وقد تردد كثيرا التأكيد عليها لدى النحاة[103]؛ لأنَّ العربية تميل دائماً إلى التخفيف، ومن المواضع التي ذكرها سيبويه: –

١– حذف نون الوقاية إذا اجتمعت مع نون (إنَّ، وأنَّ، وكأنَّ، ولكنَّ)، يقول: ((فإن قلتَ: ما بالُ العرب قد قال: إنِّي وكأنِّي ولعليّ ولكنّي؟ فإنَّه زعم أنّ هذه الحروف اجتمع فيها أنّها كثيرة في كلامهم؛ وأنَّهم يستثقلون في كلامهم التضعيف، فلمّا كثُر استعمالهم إيّاها مع التضعيف الحروف حذفوا التي تلي الياء))[104].

([95]) ينظر الكتاب: ٢/ ١٢٩.
([96]) ينظر: الكتاب: ٢/ ١٢٩.
([97]) ينظر: الكتاب: ٢/ ١٢٩.
([98]) ينظر: الكتاب: ١/ ٢٥٧.
([99]) الكتاب: ٢/ ١٣٠.
([100]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي عند العرب، د. هادي نهر، الجامعة المستنصرية، بغداد، ط١، ١٩٨٨م: ٢٠٤.
([101]) الكتاب: ٢/ ٦٥- ٦٦.
([102]) بحث: أصول نفسية واجتماعية في اللغة النحو: ٣٠٨ بتصرف.
([103]) ذكر د. أحمد إبراهيم هندي أكثر من اثنتين وعشرين موضعاً لهذه الظاهرة، ينظر: ظاهرة (بلى الألفاظ) بين أصولها التراثية والدرس اللغوي الحديث: ١٤٩- ١٥٨.
([104]) الكتاب: ٢ /٣٦٩.

٢– حذف إحدى الياءين عند النسب إلى نحو: سيّد، وميّت وغيرهما، ((فلمّا كثُرت الياءات وتقاربت وتوالت الكسرات التي في الياء والدال استثقلوا، فحذفوا، وكان حذف المتحرك هو الذي يخففه عليهم))[105].

٣– حذف احدى الياءين وقلب الأخرى واواً عند النسب في نحو: تحيّة ورميّة وكذلك مرمى وغير ذلك، ((وذلك أنَّهم كرهوا أن توالى في الاسم أربع ياءات فحذفوا الياء الزائدة ... حيث استثقلوا هذه الياءات))[106].

٤– تخفيف احدى الهمزتين عند التقائهما في كلمتين، ((واعلم أنَّ الهمزتين إذا التقتا وكانت كل واحدة منهما من كلمة، فإنَّ أهل التحقيق يخفّفون احداهما ويستثقلون تحقيقهما... فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتُحققا))[107].

٥– ومن مواضع التخلص من توالي الأمثال الحذف في نحو (عَلْماء بنو فلان) يريدون (على الماء)، وحذف ما تقاربت في المخارج، في نحو (بلعنبر و بلحارث) يريدون ((بني العنبر وبني الحارث))[108].

والراجح إنَّ ميل العربي إلى التخلص من توالي الأمثال يعود إلى البيئة التي فرضت عليه ذلك، فحاجة العربي إلى الحركة في تلك الصحراء المنقطعة، يضاف إلى ذلك إنّ توالي الأمثال يستلزم التزام رتيب يثقل عليه؛ لأنَّه يستلزم صبراً وعناية وهذا الأمر لا يتفق مع تلك البيئة المحرقة كما يدل الحذف للتخلص من توالي الأمثال على ضيق صدر العربي وميله إلى التخفيف والاقتصاد اللغوية وهروبه من التثقيل والتطويل وهذا ما تفرضه عليه تلك البيئة القاسية [109].

*** الهمز**

نظراً لما يتطلبه صوت الهمزة من جهدٍ عند اصداره فقد لجأ العربي – أهل الحجاز على وجه التحديد– إلى تغييره؛ لكثرة دورانه في ألسنتهم، ومن المواضع التي ذكرها سيبويه في تعرض الهمزة لتلك الآثار: –

١– حذف الهمزة من الثلاثي المزيد عند صوغ المضارع منه، مثل أخرج فعند صوغه للمضارع يكون على (يؤخرج) فأصبحت (يُخرج)، ((لأنَّ الهمرة تثقل عليهم ... وكثُر هذا في كلامهم فحذفوه، كما اجتمعوا على حذف كُلْ وترى))[110].

٢– حذف الهمزة في مضارع (رَأى) إلى (يرى) والأصل (يَرْأى)، ((وممّا حُذف في التخفيف قوله: أرى، وتَرى، ويَرى، ونَرى.... فقد اجتمعت العربُ على تخفيفه لكثرة استعمالهم إيَّاه))[111].

٣– تخفيف الهمزة في أمر: أكل، وأخذ، وأمر، فنقول: كُلْ، وخُذْ، ومُرْ[112].

٤– ومنه قولهم (ويلِّمه) أي (وي لأُمِّة)، كما أنَّ (لن) أصلها عند الخليل (لا أن) فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال[113].

يؤكد سيبويه بأنَّ السبب في حذف العرب للهمزة هو ثقل هذا الصوت على ألسنتهم، ولأنَّه كثُرَ استعماله حذفوه

([105]) الكتاب: ٣ /٣٧٠ – ٣٧١.
([106]) الكتاب: ٣ / ٣٤٤.
([107]) الكتاب: ٣/ ٥٤٩.
([108]) ينظر: الكتاب: ٤/ ٤٨٤.
([109]) ينظر: بحث: أصول نفسية واجتماعية في اللغو النحو: ٣١، وينظر: العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تح،أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ط، ١٩٤٤م: ٤/ ١٥٦.
([110]) الكتاب: ٤/ ٢٧٩.
([111]) الكتاب: ٤ / ٤٥٧.
([112]) ينظر: الكتاب: ٤ / ١١١.
([113]) الكتاب: ٣/ ٥.

للتخفيف، فهو صوت شديد وثقيل على اللسان يحتاج إلى جهد في النطق به مقارنة بغيره من الأصوات، ولما كان العربي يعيش في بيئة تحتّم عليه التخفيف كان من الطبيعي إلى أن يميل إلى إبدالها أو تسهيلها أو قلبها أو حذفها وهذه الظاهرة تطابق إلى حدٍّ كبير ظاهرة الفرار من توالي الأمثال، وهو موافق إلى ما توصّلت إليه الدراسات في علم اللغة الاجتماعي إذ يؤكد د. هدسون بأنَّ المنطلق الأساس للأسلوب الذي تنظم به لغة من اللغات يعتمد على احتياجات المتحدثين الاتصالية ولذلك يمكن تفسير بعض الظواهر اللغوية بأنّها ((ناتجة عن وحدة متطلبات البشر الاتصالية، وخاصة الحاجة إلى توصيل أكبر قدر من المعلومات بأقل قدر من الجهد))[114].

*** المثل وشبهه**

المثل في الأصل خلاصة تجربة تُقال في لحظة مناسبة ثم تنتشر على الألسن، وهذا ما جعل المتكلم يميل إلى الاختصار والحذف فيه؛ لأنّه يريد إيصال الخلاصة بأقصر طريق ممكن، وقد أفرد سيبويه للأمثال وما شابهها باباً قال فيه: ((هذا باب ما يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثَل))[115]، وقال المبرّد: ((والأمثال يُستجاز فيها ما يُستجاز في الشعر لكثرة الاستعمال لها))[116]، ومن وجوه الحذف في الأمثال لكثرة الاستعمال: –

١– حذف أداة النداء، يقول المبرّد: ((وقالوا في مَثَل من الأمثال: "افنَدِ مخنُوقُ" و "أصْبِحْ ليلُ" و "أطرقْ كرا" يريدون ترخيم الكروان فيمن قال : يا حارُ))[117].

٢– حذف الفعل فيما سمع عن العرب في الأمثال، ومنه: (("هذا ولا زَعَماتِك"، أي: ولا أتَوَهَّمُ زَعَماتِك" ... و"كليهما وتَمراً"، أي: أعطِني كليهما وتمراً ... و"كلّ شيء ولا هذا" و" كلَّ شيء ولا شتيمة حُرٍّ" أي: ائتِ كلَّ شيء ولا ترتكب شتيمة حُرٍّ))[118].

ويرى بعض الباحثين المحدثين أنّ الأمثال عبارة عن أفعال انجازية وإن جاءت تقريرية خبرية؛ لأنَّها تنشأ وتُبتكر من أجل النصح والتحذير والامر والنهي، وما دامت تُساق من أجل هذا فهي أفعال إنشائية، أي تتمتع بخاصية الإنشائية الكلامية، وهذا ما قرره (أوستين)، إذ قسّم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام هي: –

١– فعل الكلام، وهو التلفظ بأصوات محسوسة مصوغة في كلمات مركب تركيباً سليماً.

٢– قوة فعل الكلام، ويقصد به قول في سياق محدد.

٣– لازم فعل الكلام، وهو التأثير بالقول وناتجه في المخاطب.

وعلى هذا يمكننا القول بأنّ كثرة الأمثال في ألسنة العربي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوظيفتها الاجتماعية داخل الجماعة،

([114]) علم اللغة الاجتماعي: ١٥١.
([115]) الكتاب: ١/ ٢٨٠.
([116]) المقتضب: ٤/ ٢٦١.
([117]) المقتضب: ٤/ ٢٦١.
([118]) الكتاب: ١/ ٢٨٠- ٢٨١ بتصرف.
(١١٩) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة ،أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د. ط، ١٩٩١م: ١١٣، و أصول تداولية في الأمثال العربية قراءة في كتاب الجمهرة لأبي هلال العسكري، د. عبد السلام ميلاد جبريل، مجلة إحالات، المجلد٧، العدد٢، ٢٠٢٥م:١٢٨.

إذ تُستخدم في مواقف الحكم والنصيحة والتحذير والأمر والنهي والتعليق على الأحداث اليومية؛ ولذلك لا بدَّ من أن تكون سهلة التداول على ألسنة الناس لتثبت في الذاكرة الجمعية، فوقع فيها الحذف والتخفيف؛ لتحقيق هذه الخصائص.

إذاً الراجح في كثرة الحذف في الأمثال وما شابهها في العربية يعود للثقافة الشفوية التي تقوم على السرعة والاقتصاد في التعبير، حيث أصبحت العبارة المقتضبة أكثر قدرة على البقاء والتداول من العبارة المفصلة؛ لأنَّ الذاكرة العربية القديمة تعتمد السماع أكثر من الكتابة فكثُر استعمالهم للأمثال والحذف فيها مع مراعاة وظيفتها الاجتماعية داخل الجماعة.

*** نتائج البحث**

١– إنّ من أهم الأبواب التي كثُر فيها الاستعمال هي الأساليب الإنشائية ولعلّ السبب يعود في ذلك إلى أنّ الأساليب الإنشائية قبل ظهور التدوين كانت تؤدي وظيفة اجتماعية تداولية في مجالات مختلفة من حياة العربي، فهي الوسيلة التواصلية الوحيدة في تعاملاتهم اليومية.

٢– ونتيجة للفقرة أعلاه فقد شاع الحذف في تلك الأساليب النحوية؛ لأنَّها كثُرَ فيها الاستعمال والعربي يميل في الغالب للتخفيف ويكره التثقيل فعَمدَ إلى الحذف فيها للتخفيف والاقتصاد اللغوي.

٣– كشف البحث بأنَّ للبيئة الاجتماعية والثقافية والدينية والنفسية الأثر الكبير في البنية اللغوية.

٤– كما أظهر البحث بوساطة الأبواب النحوية الواردة التي كثُرَ فيها الاستعمال العديد من الصفات الاجتماعية والثقافية والنفسية التي يتصف بها العربي آنذاك.

*** المراجع**

الأساليب الإنشائية في النحو العربي، د. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط٥، ٢٠٠١م.

أسرار العربية، الشيخ الإمام كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي ت٥٧٧هـ، تح: بركات يوسف هبود، شركة الأرقم بن أبي الأرقم– بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

أصول تداولية في الأمثال العربية قراءة في كتاب الجمهرة لأبي هلال العسكري، د. عبد السلام ميلاد جبريل، مجلة إحالات، المجلد٧، العدد٢، ٢٠٢٥م.

أصول نفسية واجتماعية في اللغة والنحو، د. كامل مصطفى الشبيبي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، المجلد التاسع، ١٩٦١م.

الايضاح في شرح المفصّل، للشيخ أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب النحوي ت٦٤٦هـ، تح، د. موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، د. ط، ١٩٨٢م.

التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة– بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسي ت٧٤٥هـ، تح، حسن هنداوي، دار كنوز اشبيليا– الرياض، ط١، ٢٠١٣م.

الترخيم في العربية معناه. أغراضه. أنواعه، د. إبراهيم حسن إبراهيم، مطبعة حسان – القاهرة، د.ط، ١٩٨٤م

جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، دار الكوخ- بيروت، ط١، ٢٠٠٤م: ٤١٩/٣.

شرح التصريح على التوضيح، للشيخ خالد بن عبد الله الأزهري ت٩٠٥هـ، تح، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.

شرح الرضي على الكافية، من عمل يوسف حسن عمر، منشورات قان يونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م.

شرح المفصّل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي ت٦٤٣هـ، تح: أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، للإمام جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف المعروف بابن هشام النحوي ت٧٦١هـ، تح: محمد أبو فضل عاشور، دار احياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

ظاهرة (بلى الألفاظ) بين أصولها التراثية والدرس اللغوي الحديث، د. أحمد إبراهيم هندي، جامعة عين شمس، دار غريب القاهرة، مجلة علوم اللغة (٢٩)، المجلد الثامن، العدد١، ٢٠٠٥م.

العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تح، أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ط، ١٩٤٤م.

علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه دراسة لغوية نحوية، شيماء عبد الزهرة نعمان، رسالة ماجستير، جامعة بابل- قسم اللغة العربية، ٢٠٠٨م: ٩٤.

علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه، د. رشيد العبيدي، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، جزء ١، مجلد٥٢، ٢٠٠٥م.

علل النحو ،لأبي الحسن محمد بن عبد الله الورّاق ت٣٢٥هـ، تح: د. محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشيد- الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

علم اللغة الاجتماعي عند العرب، د. هادي نهر، الجامعة المستنصرية، بغداد، ط١، ١٩٨٨م: ٢٠٤.

علم اللغة الاجتماعي، د. هدسون، ترجمة محمود عياد، عالم الكتب- القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.

في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي —بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

كتاب اللامات، لأبي القاسم عبد الحمن بن اسحاق الزجاجي ت٣٣٧هـ، تح، مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م.

الكتاب كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت١٨٠هـ، تح:عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي —القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

اللغة والمجتمع رأي ومنهج، د. محمود السعران، مطبعة الاسكندرية،ط٢، ١٩٦٣م.

محاضرات في اللسانيات الاجتماعية، لطفي بوقرة، معهد الأدب واللغة ، جامعة بشار، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، د.ط، ٢٠٠٣م.

معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر- عمان، ط١، ٢٠٠٠م.

المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ت٢٨٥هـ، تح، محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، د.ط، ١٩٩٤م.

من تراكيب التحذير الدالة على المنع في تعبير نهج البلاغة، د. فاخر هاشم الياسري وتيسير قاسم عطية، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الانسانية، عدد٤، مجلد٤٣، ٢٠١٨م.

النحو الوافي، عباس حسن، انتشارات ناصر خسرو- قم، ط٧، ١٤٢٥هـ .

نظرية أفعال الكلام العامة ،أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د. ط، ١٩٩١م.